مقدمة

ما الذي يمكن فعله لتحسين ظروف الاستقبال والتعلم والتطوير لجميع أطفالنا الصغار من سن سنتين ونصف؟ ما هي الروابط والعلاقات التي يجب تقويتها بين رياض الأطفال وأهل الطفل؟ وكيف نضمن التدريب الأمثل لجميع المهنيين الذين يعملون في هذه المؤسسات؟

باختصار كيف نبني حضانة الغد؟

في هذا الكتاب عن الحضانات ورياض الأطفال، اجتمع عشرة خبراء في مرحلة الطفولة المبكرة حول الدكتور (بوريس سيرولنك Boris Cyrulnik) للتفكير خصوصا بشأن جوانب معيّنة كاكتساب اللغة والذاكرة ودور العواطف والانفعالات بل حتى ساعات النوم والقيلولة. بوريس سيرولنيك طبيب نفساني وأعصاب، له العديد من الكتب، وجميعها من أكثر الكتب مبيعًا، اشتهر بمفهوم الشفاء من الصدمات resilience وكان هو بنفسه شاهدا على تلك القدرة، لكونه فقد والديه عندما كان في السادسة من عمره في معسكرات الإبادة النازية (١٩٣٩ – ١٩٤٥).

مع كل ما يدور حول الحضانة ورياض الأطفال، سيتمكن كل أب وأم للأطفال الصغار، من عمر سنتين ونصف إلى (٦ سنوات)، من الاطلاع أو التساؤل أو الشعور بالإحباط أو الاطمئنان أو حتى العثور على إجابات حول قضايا تخص أحد المواضيع المطروحة من أساسيات تعليم الأطفال في هذه الأعمار. إنه اختبار نفسي يتناسب مع تطورات المدارس منذ بداية العام الدراسي ٢٠١٩، حيث أصبح التعليم إلزاميًا من سن (٣ سنوات) في فرنسا. هذا الكتاب، الذي يوقعه طبيب نفسي مختص بالأعصاب مع عالم النفس فيليب دوفال، يلقي نظرة على تطوّر أطفالنا كأطفال وطلاب. ويذكرنا بأن كل ما يحدث ويتم عبر اللعب في الحضانة ورياض الأطفال ليس مجرد ألعاب. بل فيه فائدة للطفل، وحتى للأهل.

١. يستطيع الطفل أن يتعلم أكثر كلما شعر بالأمان.

نمو الطفل يبدأ قبل الولادة بفترة طويلة، وتكون السنوات الثلاث الأولى من وجوده حاسمة. ولكي يتعلم جيدًا، يحتاج إلى جو من الاطمئنان. وقد نتساءل ما هو سبب؟

قبل الولادة، يمكن للطفل أن يعاني من صدمات وهو رحم أمه. في الواقع، إذا ما تعرضت الأم للتوتر والعنف أو لمواقف محفوفة بالمخاطر، وحتى للحرمان، فإن جسمها يفرز مواد (الكورتيزول cortisol، الكاتيكولامينات catécholamines) وهي سامة لدماغ طفلها. وهذا سيقوم بابتلاعها عن طريق السائل (الأمنيوسي amniotique) الذي يسبح فيه. وعندما يولد، يكون هذا الطفل مصابًا بدماغ ضامر على مستوى الجهاز الحوفي (limbique)، الذي هو مركز الذاكرة والعواطف.

بمجرد ولادته، تعدُ بداية حياة الطفل وقتًا حاسمًا. ويتشكل دماغه متأثرا بالبيئة التي يعيش فيها:

فإذا ما كان منغمسًا في عالم آمن، فإن دوائر الدماغ سوف تعمل بشكل صحيح؛ أما في بيئة صعبة وغير المستقرة، سيكون تحفيز الدماغ ضعيفًا. ومع ذلك، نظرًا لأن الدماغ مرن وقابل للتطور، فهناك إمكانية لتصحيح المسار والمرونة (résilience)، أي لديه القدرة على النجاح والازدهار بالرغم من الشدائد. وفي حوالي (١٨ أو ٢٠) شهرًا، يبدأ الطفل في الكلام. وتستمر الفترة الحساسة لاكتساب اللغة مدة تصل إلى (٣٠) شهرًا.

عندما يكون الطفل في سياق متناغم، فإنه يكون محاطا بوجوه مطمئِنة ويسمع ما يحفزه من الكلمات. يكتشف متعة استكشاف العالم ويطوّر تدريجياً الشعور بالثقة واحترام الذات.

أما إذا ما حدث العكس، وكان الطفل يعيش في جو مرهق، فهو سيظل صامتًا ويدافع عن نفسه. لأن دماغه يصنع آليات دفاع ولا يستمتع الطفل بلذة الاكتشاف.

إضافة إلى هذا، لا يتعلم الطفل إذا لم تكن لديه مشاعر، فالصورة والصوت يوقظان وعيه ويوفران المعلومات ويعززان قابلية الحفظ لديه. علاوة على ذلك، يُنصح بإجراء تناوب بين الأعمال المنشطة كالتمارين البدنية والموسيقى، وما إلى ذلك، وبين أوقات الراحة.

في النهاية، غالبًا ما يضرّ استمتاعه بالتعلم هو البيئة التي يعيش فيها. أي كل التعليقات المحبطة والسلبية التي يمكن أن يسمعها، مثال: "أنت لا تصلح للمدرسة"، مثل هذا التعليق سيحدّ من تطوّره ويمنعه ويحدّه.

باختصار، تلعب العاطفة دورًا أساسيًا في التعلم. وعند دخول المدرسة، إذا كان الطفل يشعر بالأمان فذلك أفضل وسيلة للتعلم.

٢. على الطفل أن ينام جيداً في المدرسة وخصوصا في البيت.

النوم ضروري لنضج الدماغ وعمل الجهاز العصبي بشكل سليم. لكن ما هي فوائد النوم للطفل؟

- تعتمد نوعية النوم على اليوم السابق. الذي بالتالي، يعزز النوم المريح.
- لندع الطفل يلعب بمفرده من وقت لآخر.
- لنتركه يرتبط بانتظام مع شخصيات يمكنه أن يتعلق بها، أي هؤلاء الذين يعتنون به.
- لنمنحه لحظات نهتم به حقيقة وننتبه إليه.

في السنوات الأولى، يمكن للطفل أن ينام من (١٠ إلى ١٢) ساعة في الليلة، بالإضافة إلى القيلولة. وهذا ضروري للطفل دون سن الثالثة، ويمكن أن يستمر هذا النظام حتى سن الخامسة أو السادسة.

إن القيلولة أقل إثارة للقلق من النوم ليلاً، فالليل يأتي ومعه الشعور بالوحدة والأحلام والكوابيس. لكن القيلولة مواتية لـ:

استعادة الطاقة بعد التعب. فالطفل الذي يُنهك نهاره كثيرًا (ولا يأخذ قيلولة) سيجد صعوبة في النوم ليلًا، كما أن فائدة القيلولة تكمن بتعزيز ما قد تعلمه في الصباح؛ وستعطيه سلوكا أكثر هدوءًا. وستقلل عند الطفل علامات فرط النشاط أو الإثارة المبالغ بها؛ وتزيد ليه المشاعر الايجابية.

مع ذلك، فإن بعض الأطفال يأخذون قيلولة في المنزل، ولكن ليس في المدرسة، بسبب الازدحام أو الضوضاء أو لأنهم لا يريدون النوم حقًا. يرفض آخرون أخذ قيلولة في المنزل، لكنهم يفعلون ذلك في المدرسة عن طيب خاطر. أو يمكنهم أيضًا اعتبار لحظة الراحة هذه مضيعة للوقت.

في كلتا الحالتين، تعتبر القيلولة من أهم ما يميّز يوم الطفل لأنه بها يستطيع الهروب من مزاحمة الآخرين والضوضاء.

إن كان الأطفال معتادين على القيلولة على شكل فرق صغيرة، إلا أنه ليس أمرا حتميا لجميع الأقسام الأخرى. لذلك، يُنصح بحجز منطقة استراحة لمن يحتاجون إليها. ولتحسين قيلولة الصغار بفائدة قصوى، يوصى بترتيب مناطق الراحة. بحيث:

- يكون لكل طفل دائمًا نفس السرير مع حقيبته الشخصية.
- يتم تخصيص كل سرير بصورة شخصية للطفل وإن يكون كان معه "دودو" (وهي قطعة قماش أو بطانيته المفضلة) خاص به وما إلى ذلك.
- ألا تكون غرفة الاستراحة كبيرة جدًا بل هادئة الأضواء والألوان.
- يمكن أن تستخدم هذه الغرفة لأغراض أخرى غير القيلولة أثناء النهار.

بالإضافة إلى ذلك، فإن أداء الطقوس التي ترافق القيلولة يعزز سهولة النوم. في شبه الظلام، يتشجع الأطفال على الاستماع إلى الموسيقى الهادئة لتسهيل النوم. من الناحية المثالية عادة، يستيقظون بمفردهم.

إن كان الأهل يحرصون على نوعية وجودة نوم أطفالهم، يؤدي موظفو الحضانة أيضًا دورًا مهمًا في ذلك:

هؤلاء يمكنهم التعلم من الأطفال كيفية التعرف على الإشارات التي يرسلها الجسم بأنه يحتاج إلى الراحة، قد يلجأ موظفو الحضانة إلى الاستعارات والتشابيه، مثل قطارات النوم الصغيرة.

بشكل عام، يحتاج الأطفال الصغار إلى قدر كبير من النوم. يجب احترام أهمية الغفوة الجماعية بعيدًا عن اعتبارها ثانوية أو عرضية، فالقيلولة إذا ما مورست سوية تجعل الطفل يتشجّع ويتربى على التناغم في النمو المتوازن.

٣. عندما نتعرف على كيفية عمل ذاكرة الطفل يمكننا أن نسهّل لديه التعلم

الذاكرة عبارة عن نظام ديناميكي يسمح بالتشفير (أي التسجيل) والتخزين (الدمج والربط) والاسترجاع (الاستدعاء). ولأجل هذا، للذاكرة أشكال مختلفة من العمل. والسؤال هو متى تبدأ وكيف تنشأ الذاكرة لدة الطفل؟

الذاكرة تتكون من:

- كونها إدراك، لأنها مرتبطة بالأحاسيس، وهي تسهل عملية تسجيل الذكريات.

- كما أن الذاكرة إجرائية. أي إنها تعتمد على معرفة كيفية التصرف وتكرار القيام بالأعمال المكتسبة (مثل ركوب الدراجة). ويقوم هذا النوع من الذاكرة بالنمو والتطور حتى سن (٣) سنوات.
- ذاكرة الدلالات المعرفية. وهي تتعلق بالمعارف العامة ("أعرف أن للكلب أربعة أقدام")، وهي ضرورية لإنتاج الكلام، والعمل. وهي التي تسمح بالتخزين على المدى القصير ومعالجة كمية صغيرة من المعلومات البسيطة العرضية أو التي تتعلق بحياة الشخص وسيرته ذاتية (اسمك، من أنت، ما اسم أبيك؟). هذه الذاكرة تتعلق بالذكريات الشخصية الراسخة في الزمان والمكان، وتتطور في حوالي سن (٤ أو ٥) سنوات.

أما ذاكرة العمل فتستدعي الوظائف التنفيذية، وهي مجموعة من العمليات العقلية التي تجعل من الممكن التكيّف والتفاعل مع أي موقف جديد. يقوم الطفل بتنميتها بين (٣ و٥) سنوات حتى سن المراهقة بل حتى بعد ذلك.

على سبيل المثال، بفضل "المرونة العقلية"، يمكن للطفل العبور من وجهة نظر إلى أخرى. وهكذا يتعلم أن يضع نفسه في مكان الآخرين.

تسمح هذه الذاكرة للطفل بحفظ تعليمات وإرشادات خلال الوقت اللازم لأداء تمرين ما أو عدة أعمال في نفس الوقت. بعد ٥ سنوات، يقوم الطفل بتطوير هذه القابلية، إضافة إلى قدرته على التخطيط والتوقع.

أما بالنسبة للذاكرة الموقتة (العرضية)، فلا يمكن للأطفال الصغار تطويرها. لأن دماغهم غير ناضج ولا يستطيع أن ينسج الروابط بين جميع عناصر الذاكرة (المكان والزمان والسياق)

وينتهي بهم الأمر إلى النسيان. لذلك، لا يستطيع الشخص البالغ تقريبًا أن يتذكر أيًا من الأحداث التي حدثت له قبل سن الثالثة لأسباب عديدة (ما عدا بعض الصدمات التي تكون أثرت عليه).

إضافة إلى ذلك، يستمر الإنتاج الدائم للخلايا العصبية الجديدة في الدماغ، والذي اكتمل تقريبًا عند الولادة، لكن تستمر تلك الخلايا في الزيادة في منطقة الحُصين (hippocampe) حتى مرحلة البلوغ.

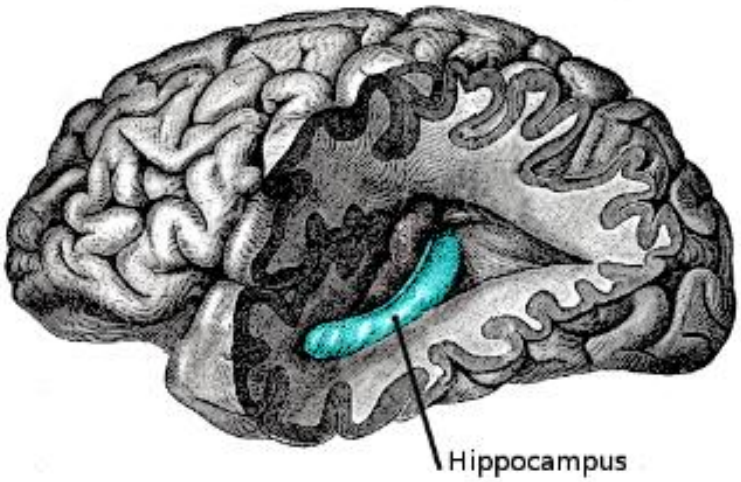

هذا التشكيل العصبي المتجدد يمحو الأحداث السابقة تدريجيًا. وعلينا الانتظار حتى تتضاءل هذه الأعصاب لكي تتماسك الذكريات.

أخيرًا، يعيق غياب اللغة تطوّر الذاكرة العرضية (épisodique). في عمر السنتين، وهي مرحلة أساسية في تكوين الدماغ، يبدأ الطفل في التحدث مع الكبار. ثم يبدأ في ترسيخ الأحداث بحسب الوقت المناسب (يتذكرها ويقسمها على الزمن) فيميز بين الماضي والحاضر والمستقبل تدريجيا. أي إن الوعي الذاتي، الذي يسمح للطفل أن يضع نفسه في الماضي والحاضر والمستقبل، يتم بناؤه تدريجياً.

لا يستطيع الطفل وصف نفسه جسديًا إلا في سن الرابعة تقريبًا. إنه يحتفظ في الذاكرة بعناصر معزولة (متفرقة)، خارج أي سياق، أي ليس لديه بعد ذكريات دقيقة.

لذلك، لمساعدة الطفل على الانتقال من الذاكرة إلى المعرفة وتحسين التعلم نفعل ما يأتي:

- ندعوه إلى تكرار الفقرات (الظرف)، مع فترات راحة بين كل منها.
- إعادة تنشيط معرفته من خلال الاختبار (quiz) أو الأسئلة.
- التركيز على النوم الجيد (فالنوم مثبت الذكريات، وهذا أيضا دور الأحلام).

باختصار، إن المسألة هي إنشاء الذكريات المختلفة وخلق ظروف التعلم. وتحديد كيفية (منهجية التعلم) لكي نتمكن من فهم الطفل وتوجيهه.

٤. إتقان لغة التواصل الشفهي مفتاح دخول ناجح إلى المدرسة الابتدائية

الطفل الذي هو على وشك تعلم القراءة والكتابة يتوصل إلى ذلك بسهولة أكبر إذا ما كان مرتاحا في التواصل الشفهي. لذلك فإن لرياض الأطفال دور حاسم تقوم به. ما الذي يجب أن تلتزم به الحضانة؟

عندما يبدأ الطفل بالحديث، يبدأ بالتحدث أولا إلى من يعرفهم، قبل أن يتحدث إلى الغرباء في المدرسة. تسير هذه المواجهة على ما يرام إذا كان الطفل قادرًا على التعبير عن نفسه مسبقًا أمام أقاربه المنتبهين إليه، ويكونون في نفس الوقت طيّبين ومطالبين (حازمين). بمعنى آخر، عندما ينطلق في الكلام ويخطئ في مخارج الأصوات، فإنهم يوجّهونه ويساعدونه في تصحيح أخطائه.

في الواقع، يُعدُ اكتشاف الأصوات أمرا شديد الدقة. على سبيل المثال، يكون نطق كلمة "بوق" في عمر عامين أمرًا معقدًا. لكن يمكن للطفل الصغير أن يقول "بوو" أو "با"، مما يؤدي إلى الخلط بين "ب" و "ق".

من خلال النطق بالطريقة الصحيحة، سيدرك القوّة التي يمتلكها ليجعل الآخرين يفهمونه ويحصل على ما يريد. يجب أن يدرك الطفل أيضًا أهمية الدقة في الكلام.

على سبيل المثال، حكت طفلة تبلغ من العمر (٤) سنوات قصة لزملائها في الصف لكنها لم تذكر الشخصيات سوى بالضمائر (هو، هي). فلم يفهمها أحد. ثم حثتها المعلمة على توضيح من هم "هو" أو "هي". وهكذا أصبحت القصة مفهومة للجميع.

منذ ذلك الحين تعلمت الطفلة أن هناك عنصرًا مجهولا في عملية الاتصال مع الآخرين وهم قد لا يعرفونه فلا يفهمون، لذا عليها أن تفكر وتطرح على نفسها مثل هذه الأسئلة:

- ماذا يعرف الآخرون عمّا أعرفه أنا؟
- لكي يتمكن الآخرون من فهم ما أقول، ما هي المعلومات التي يجب أن أقدّمها لهم؟

لذلك فإن اكتساب مفردات غنية ودقيقة هو أولوية. وعندما نفكر في أشكال التفاوت الكبيرة بين تلاميذ المدرسة، سيقع على عاتق الحضانة واجب مساعدتهم على جمع كمية كبيرة من الكلمات والمفردات وزيادة دقتها ووضوحها.

في الواقع، يميل الطفل إلى إعطاء ما يقول لونًا (أو شحنة) عاطفيًا. على سبيل المثال، يربط بين "السوق" ومع جدّه الذي يأخذه إليه.

لذا يجب عليه أن يتعلم أن يحدّد المعنى التقليدي للكلمات، أي المعنى الذي سيفهمه الجميع بالاتفاق عليه. هكذا، يمكن للمعلم استخدام درس يسمّيه "ورشة عمل الكلمات" كما يأتي:

- يختار المعلم واحدة من الكلمات ويسأل الأطفال عمّا تعنيه.
- يتركهم يجيبون ويتناقشون فيما بينهم.
- يتفقون جميعًا على ما هي تلك الكلمة وما ليست كذلك.
- يضع كل من الأطفال تلك الكلمة في جملة، ويقومون بوصف سياقها.
- يتساءلون عن محلها في الجملة وتكوينها (مبتدأ، خبر، إلخ).
- يحتفظ المعلم بتسجيل كل ذلك في "دفتر كلمات" يصبح مفيدا لمراجعات لاحقة.

هكذا تتم عملية تصنيف الكلمات بربطها بأشياء أخرى (حذاء، جورب، يلبس الحذاء، إلخ). كل هذا سيساعد الطفل على حفظ الكلمات. وكلما حفظ الطفل عددًا كافيًا من الكلمات، ازدادت قدرته على فهم الكلمات الجديدة وتوسيع مفرداته، كثرة المفردات نعمة وذكاء. إضافة إلى ذلك، يجب على الكبار تدريب الطفل على أهمية الكلام المرتّب بحسب النحو والمعنى. فيفهم الطفل الصغير أن الكلمات عندما تتجمّع بكون فيها منطق وهي بذلك تقدّم معنى يجب احترامه.

على سبيل المثال، إذا كانت الجملة تقول "الخروف يأكل الذئب"، هي جملة صحيحة نحويًا، لكنها غير متسقة من ناحية المعنى. لهذا السبب، ليكن لدى المعلم تمارين تحت تصرفه. يمكنه أن يقترح بأن يقوم طلابه بتقطيع الجمل نحويًا إلى مقاطع وأجزاء. بحيث تشير هذه المقاطع إلى:

- الشخص الذي يفعل شيئًا ما (الفاعل، هي "الأرانب").
- ما الذي يتم فعله (الفعل "يلعبون").
- أين تتم العملية (المكان، "في الغابة").

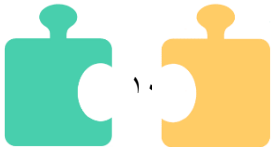

باختصار، يجب على معلمي رياض الأطفال مساعدة كل طالب على تحقيق الطلاقة الشفهية الكافية لديه. بفضل هذا، سيتعلم الأطفال القراءة والكتابة بسهولة أكبر.

٥. تعلّم لغتين أو أكثر له من المزايا أكثر من العيوب

كثير من الناس اليوم يهمّهم عدم الاكتفاء بلغة واحدة، إما بسبب مناطق سكناهم أو السفر أو الدراسة، ويمكن أن ترتبط تعدّدية اللغات (أو فقط ثنائية اللغة) بلغات عالمية أو إقليمية أو محلية. في العراق يقول موقع هيئة الأمم المتحدة بأن فيه (٨) لغات محلية نصفها في طريقه إلى الانقراض، وينقسم الناس إلى مشجّع ومنتقد (أو لا أبالي) في الإبقاء على لغات ضعيفة، او قوية تسود على حساب الضعيفة. المهم هو إن تعدّد اللغات – أيا كانت – عامل مساعد للنضوج المبكر، حتى لو اختلف الناس بين مؤيد ومنتقد. فهل نشجع تلك التعددية؟

الجواب من وجهة نظر هذا العالم النفساني بوريس سيرولنك يأتي من منظور طبّي، خصوصا وأن الليونة المثلى للدماغ في السنوات الأولى من عمر الطفل تجعل من السهل تعلم لغة ثانية. وهذا له الكثير من المزايا.

بادئ ذي بدء، فإن إتقان لغتين يوفر إمكانية الانفتاح على ثقافتين وعالمين وتوسيع نطاق معارف المرء. بعد ذلك، تسمح ثنائية اللغة بتطوير أكبر على التركيز، أكثر مما تقدّمه أحاديّة اللغة.

واقعيا، في كل مرة يتحدث الطفل، تكون كلتا اللغتين نشطة، حتى لو كانت لغة واحدة فقط قيد الاستخدام. وسوف يجب عليه إسكات إحدى اللغتين عند التحدّث بالأخرى، هذا الأمر سيتطلب منه قوّة تركيز خاصة، والتركيز يربّي.

إضافة إلى ذلك، يتطوّر الطفل ثنائي اللغة في بيئة خاصة جدًا. كما لو كان بالفعل منغمسًا في حمام لغوي معقّد: ففي وقت مبكر جدًا، منذ نعومة أظفاره، كان يسمع أصوات رجال ونساء وأطفال من الذين يتحدثون لغة واحدة أو أكثر، ولهجات مختلفة، بعضها بشكل صحيح إلى حد ما، وبعضها الآخر خطأ.

سوف يتمكن أن يميّز فيسمع والدته تتحدث بلغتها، وأباه يتكلم بلغة أو لهجة أخرى مختلفة، يمكن لكلا الوالدين أيضًا من حين لآخر تغيير اللغة بالتناوب، بل وحتى خلط اللغتين في نفس الجملة. لذلك، تلعب كل من الأسرة والسياق الاجتماعي دورًا مهمًا في تعلم العديد من اللغات.

قبل بلوغ سن سنتين، يمكن للطفل ثنائي اللغة التمييز بين اللغتين. فهو قادر، على سبيل المثال، على التمييز بين حرف "الدال d" بالفرنسية (اللسان يضغط على الأسنان الأمامية) وبين الإنجليزية حيث "حرف الدال" (يلمس اللسان سقف الفم، أو الحنك).

إن التحدي الحقيقي للطفل ثنائي اللغة هو تعلم قواعد الصرف والنحو والتراكيب النحوية المختلفة بين لغة وأخرى. ببلوغه سبعة أشهر، يكون الطفل قادرًا على فهم أن ترتيب الكلمات في الجملة وهذا يختلف من لغة إلى أخرى.

إنه يعرف، على سبيل المثال، أننا في اللغة الفرنسية، يكون الترتيب غالبًا SVO (فاعل / فعل / مفعول به)، لكن في اليابانية أو لغة الباسك، يكون SOV (فاعل / مفعول به/ فعل) كما في السورث بعضهم يقول "أكلتُ خبزا" وبعضهم الآخر: "خبزا أكلتُ".

مع ذلك، سيتوجب على الطفل ثنائي اللغة بذل المزيد من الجهد كما يأتي:

- يجب عليه أن يكتسب من الكلمات ضعف العدد (الذي في كل لغة). ومع ذلك، لا نتوقع منه أن يعرف الكثير من الكلمات في كل لغة في نفس الوقت؛ (هذا التفاوت طبيعي).
- يتعلم الطفل ثنائي اللغة، مثل نظيره أحاديّ اللغة، أن الشيء له اسم واحد فقط (كائن = اسم). ومع ذلك، يجب أن يقبل أن يكون للكائن اسمان، واحد في كل لغة.

أخيرًا، ضع في اعتبارك أن جميع الأطفال مختلفون. يستطيع ثنائيو اللغة الذين يبدؤون التحدث الخلط بين اللغتين، ويمكنهم أيضا تفضيل إحداهما على الأخرى.

في البداية، يرتكب أحاديّو اللغة وثنائيّو اللغة على حدٍ سواء أخطاءً عندما يعبّرون عن أنفسهم. كأن يضاعفون المقاطع، أو يفهمون معنى الكلمات بشكل خاطئ.

بين سن ٢ و٣ سنوات، يستطيع ثنائيو اللغة إنتاج تعبيرات تأتي خليطا من كلتا اللغتين:

"Non, das ist ein Cadeau" (مزيج من الفرنسية والألمانية). أو كما يتكلم أولاد العراقيين الذين ولدوا في الخارج.

هذه الظاهرة التي تسمى تبديل الكود (code switching) ليست خطيرة وقد يمارسها بعض الأهل أيضا. وكلما تمكن الطفل من إتقان كل لغة على حدا، قلّ الخلط لديه.

لثنائية اللغة لدى الأطفال الصغار إذن العديد من المزايا لتطوّرهم وتركيزهم. وهذا لا يمنعهم من امتلاك قويّ لإحداهما بشكل صحيح بل حتى لكليهما لاحقا.

٦. للموسيقى تأثير إيجابي على أدمغة الأطفال

تؤثر الموسيقى على دماغ الانسان عموما، ولها تأثيرات خاصة عديدة على الأطفال. ما هي؟

- تؤثر الموسيقى على اكتساب اللغة أو أي لغة أجنبية، كذلك تؤثر على الانتباه والذاكرة، وعلى المهارات الحركية، وعلى الثقة بالنفس والتفاعل مع الآخرين.

بشكل ملموس، عندما تسمع أصواتًا:

- يقوم الفص الصدغي الخاص بك بفك تشفيرها.
- الجزء الخلفي من الدماغ، المسمى بمنطقة (فيرنيك Wernicke)، يقوم بمنح تلك الأصوات معنى.
- في فص الجبهة الخاص بك، منطقة (بروكا Broca)، تعمل على (تفسير) العالم من خلال إنتاج اللغة.

هاتان المنطقتان مرتبطتان بحزمة مقوّسة تتكون من ألياف عصبية. وهذه يتم تعزيزها في كل مراحل العمر بالأنشطة الأدبية والموسيقية.

على سبيل المثال، إذا أسمعتً جنينًا في بطن أمه يبلغ من العمر ١٦ أسبوعًا (٤ أشهر)، موسيقى حكاية بيتر والذئب لسيرجي (بروكوفييف Sergueï Prokofiev) كتبها في عام (١٩٣٦)، يظهر في أجهزة السونار أنه يفتح فمه كما لو كان على وشك الغناء. وبعد ولادته، سوف يتعرف على أن (آلة) الباسون basson، وهي تمثل الجد، عندما نسمعها له مرة أخرى، شرح القصة بالعربية على موقع: (https://www.youtube.com/watch?v=UWiJZz2bPAM).

بالطبع، إن أول ما يتفاعل معه الطفل (وهو جنين) هو صوت أمّه المطمئن الذي يسمعه في الرحم وبعد الولادة يتذكره. كما أنه يتفاعل مع الموسيقى المكوّنة من النغمات التي يتتابع بعضها مع البعض بشكل متناغم، وهي تكون أسهل لديه في فك تشفيرها وفهم معناها من النغمات المتنافرة أو النشاز. كما يروق له الإيقاع أيضًا، سواء كان مهدّئًا أو محفزًا له.

لذلك من الأفضل أن يغنوا له التهويدات (التي تتلاءم مع هزّ المهد)، لأنها تنشط ليونة الدماغ لدية وتحفز ذاكرته. في الواقع، الموسيقى تشكل الدماغ وتنشط الإفرازات الهرمونية، كالتالي:

- الدوبامين la dopamine، الذي يجعلك ترغب في العيش والحركة (ويسمى هرمون السعادة).
- المورفين الداخلي المنشأ (الذي ينتجه العقل).
- السيروتونين، مضاد طبيعي للاكتئاب.
- الأوسيتوسين ocytocine، هرمون التعلق بالآخر.

على الرغم من أن الذاكرة في الطفولة تُمحى بسرعة، لكن الطفل سيتذكر لفترة طويلة هذه اللحظات الخاصة المتميزة.

أما بشأن ما يتعلق باللغة، فالمولود الجديد يقوم بفك تشفير موسيقى اللغة على الفور، أي الإيقاع، والدندنة، وجرس الصوت، والحجم، وسرعة الكلام وأشكال الصمت أيضا (وهي مهمة جدا نحتاج أن نتعلمها).

إذا كان الطفل إنجليزيًا أو ألمانيًا، فإنه سيسمع لغة متأرجحة، مع لهجات منشّطة أو خشنة. لكن هذا ليس هو الحال مع الفرنسية، التي تختلف بإيقاعها المسمّى الإسكندري (مقياس فرنسي كلاسيكي، هو بيت شعر يتكون من نصفين من ستة مقاطع لفظية، ما مجموعه (١٢) مقطعًا لفظيًا. يتم توضيح النصفين في الخاتمة). يقابلها الأبوذية بالعربية.

يكون الطفل حساسًا للعواطف التي تسببها أصوات اللغة، لكنه قد لا يفهم المعنى إلا من سياق الإيقاع والنبرة الحنونة او الغاضبة.

في الواقع، يستخدم الطفل دماغه من خلال نماذج إيقاعية كما يأتي:

- من أجل التمييز بين الأصوات المختلفة.
- لفهم معنى كلمات اللغة.
- لتعلم الكلام بدوره.

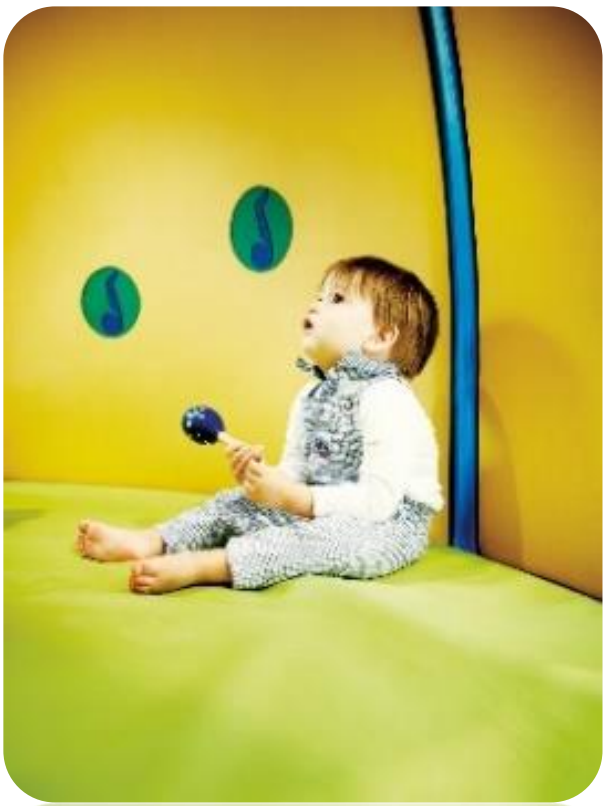

لذا علينا أن نغنِّي له أغاني الأطفال مع لفظ واضح وتعبير جيّد. بهذا ستجعله يكتشف إيقاع لغتك بفضل المزيج بين الكلمات والموسيقى وحتى حركات الجسم.

تتيح طبقة التنغيم الوصول إلى معنى الرسالة أو الفحوى، ثم إلى معنى الكلمات والجُمل. وتساعد أناشيد الحضانة الأطفال على نطق كلماتهم الأولى في سن سنة واحدة، ثم الحصول على تعبير واضح في سن ثلاث سنوات.

إن الموسيقى، بخصائصها مواتية بشكل خاص لنموّ الأطفال، وهنا يكمن موضوع اتخاذ مبادرات عديدة (وعند مختلف الشعوب الكثير منها في تراثها) راجع مقالات مجلة التراث الشعبي العراقية العريقة.

على سبيل المثال، في حضانات فرنسية يسمونها "الوجهة هي للأطفال" "Cap Enfants"، التي أنشأتها (كلوديا كيسبي ياهي Kespy–Yahi)، تم تجهيز كل مؤسسة بأداة تعليمية تربوية أسموها الفقاعة الموسيقية، (La Bulle Musicale). إنها نوع من كوخ الجليد (igloo) لدى شعب الإسكيمو يحتوي على أمور متعددة منشطة للحواس للاستماع إلى العالم.

تأسس هذه الحضانات عام (٢٠٠٥. ثم ابتكرت مفهوم الحضانة الموسيقية، مكانًا للترحيب بالطفولة المبكرة على أساس اليقظة الثقافية والفنية كأداة للانفتاح على العالم، وتطوير اللغة والاستعداد لتعلم اللغات الأجنبية.

يطوّر الأطفال الذين يستفيدون من هذه التقنيات مهارات سمعية في وقت مبكر جدًا، ثم يصلون إلى اللغة والقراءة بسهولة أكبر. وفي وقت لاحق، تصبح مفرداتهم أغنى من المتوسط لدى من هم بأعمارهم ويتعلمون بسهولة أي لغة أجنبية.

في النهاية، الموسيقى لا تقدر بثمن لنموّ الطفل. وكل من كان على اتصال بالموسيقى في وقت مبكر سوف يكون سبّاقا في التحدث قبل الآخرين.

٧. ترتيب أمكنة خاصة للاستقبال الجماعي بما يفي باحتياجات الأطفال

الأطفال حساسون للغاية للبيئة المحيطة بهم والتي يتحركون ويعملون فيها. لكن في بعض الأحيان لا تلبي تلك البيئة احتياجاتهم. كيف يمكن إذن خلق "بيئة تنموية" قادرة أن تساعدهم في استعادة مساحة مفيدة للعب والتعلم؟

هذا ما يسمى "علم البيئة التنموي" وهو مجال يتم فيه البحث في أيامنا أكثر فأكثر وهو يركز ويتوجه نحو النظام الدقيق الذي ينمو فيه الطفل. هدفه دراسة التفاعلات بين الطفل وبيئته من خلال تحديد الخصائص التي من شأنها أن تعزّز أو تعيق نموّه.

لذلك يجب علينا تطوير رؤية منهجية (بخلق نظام صغير) لتسليط الضوء على اعتماد وتفاعل جميع العناصر التي تشكل هذه البيئة.

على سبيل المثال، الحضانة هي نظام صغير حيث تتفاعل ثلاث مكوّنات كالتالي:

- البالغون.
- الأطفال.
- المواد (مساحة المكان، الأثاث، الألعاب، الأدوات التعليمية).

إذا حدث وتعرض أحد هذه المكوّنات للتغيير، فإن المكوّنَين الآخرين سيتأثران (ويؤثِران في الأطفال).

إذن ما هي أفضل طريقة لتحقيق التوازن بين مساحات المعيشة الجماعية هذه؟ إن الملاحظة الدقيقة التي أجريت على الأطفال في مختلف الحضانات تسمح لنا بتحديد بعض العناصر التوضيحية.

الأثاث المرتبة بشكل سيئ أو عشوائي تخلق حواجز بصرية. يحتاج الأطفال إلى الوصول البصري إلى الغرفة بأكملها، وخاصةً إلى مكان وجود البالغين. على سبيل المثال، تعتبر قطع الأثاث التي يبلغ ارتفاعها مترًا واحدًا حاجزًا بصريًا يغيّر من سلوك الأطفال، وخاصة الأصغر سنًا (٢٤/٣٠ شهرًا).

لذلك تراهم إذا ما كثرت الحواجز:

- سوف يتحركون أكثر.
- سوف يستخدمون هذه المساحات بشكل أقل من المطلوب.
- سينكمشون على أنفسهم ويلعبون بشكل فردي وليس جماعي.
- ستنخفض التفاعلات الودّية بينهم، في حين ستزداد الصراعات والخصومات.
- مهم جدا المكان الذي يحتله البالغون ووجودهم في المكان.

مثل مصابيح السيارة الأمامية، يضيء البالغون المناطق التي يمكن للأطفال اللعب فيها بسهولة أكبر. وسواء كان البالغون ينظرون إلى الأطفال أو لا، وحتى إذا كان وهج المصابيح مبهرا لكونها توجه عليهم أكثر من اللازم (اعمل كذا، لا تعمل...)، فإن لذلك نتائج وعواقب على موقف الأطفال وسلوكهم. بالتالي، علينا أن نفضل أن يكون "المصباح مضاء" فقط، أي أن تكون نظرة البالغين هادئة ومحِبّة، عندما يراقب الكبار الأطفال أثناء اللعب. هذا الوجود "الناظر" سيسمح للأطفال باحتلال المساحة بأكملها بشكل مستقل مع توفير الأمان العاطفي الذي يحتاجون إليه.

أما إذا كانت الأمور تسير باتجاه "إيقاف المنارة" (أي المصابيح مطفأة)، فسيتضاءل التبادل بين الأطفال أنفسهم وبين البالغين بشكل قوي وحاد. إن لبعض الألعاب ما يؤثر على التفاعل بين الأطفال.

على عكس ما قد يعتقد البعض، ليست الألعاب التقليدية (التي فيها يقلدون الكبار) هي الأفضل مثل غرفة طعام صغيرة، الدمى... أو الألعاب التي تستوجب الانشغال (مثل الأحجيات والألغاز puzzles، أو ألعاب الإنشاء والبناء)، كل هذه ليست بالضرورة ما يعزز التبادل والتفاعل بين الأطفال. بل الحقيقة إنها ألعاب المهارات الحركية (كالكرة، والدراجات، والزحليقة).

الألعاب التي تستوجب الحركة تشجّع الأطفال على اللعب والتواصل مع الآخرين. بدلاً من ذلك، تشجّع الأنواع الأخرى من اللعب الانزواء الفردي أو اللعب المتوازي، حيث سيلعب الأطفال بجوار بعضهم البعض كل بلعبته، لكن من دون تفاعل بينهم.

في النهاية، من مصلحة الكبار تنظيم المساحة لاستقبال الأطفال الصغار واستيعابهم. يعمل هذا النظام الذي يحوي "الأطفال مع الكبار، إضافة إلى مساحة كافية للعب"، بشكل أفضل إذا ما أخذنا في الاعتبار الحاجة إلى التفاعل بين جميع الحاضرين وبين اللاعبين خصوصا.

٨. أن تكون محترفًا في عملك في الحضانة يتطلب مهارات تعليمية وتربوية قوية.

لقد شكل بعض معلمي المدارس ومسؤولي الحضانات في الدول المتقدمة تنظيما باسم (أتسيم Atsem) (Agents territoriaux spécialisés des écoles maternelles) العاملون في مدارس الحضانات الإقليمية المتخصصة، وهم يلعبون دورًا أساسيًا في تربية الأطفال. وذلك من

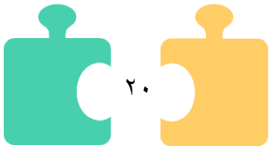

خلال السهر الدائم على تعزيز مهاراتهم التعليمية كأمر ضروري. ويسجّلون ملاحظاتهم في جداول: ما هو مخطط اليوم؟

فدخول الطفل إلى الحضانة هو مرحلة مهمة ويشكل تغييرًا كبيرًا في حياته. وغالبًا ما تكون هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه في مجتمع أكبر من أسرته. لذلك من الضروري أن يقوم المهنيّون المدربون جيدًا بدعمه ومساعدته في هذه المرحلة الجديدة المهمة.

لا يكفي أن تكون أحد الوالدين أو أن تعرف بشكل حدسي كيفية رعاية الأطفال لتكون مؤهلاً كمحترف في مرحلة ما قبل المدرسة.

في الواقع، يشارك العامل في نظام (الأتسِم Atsem) في تربية الطلاب من دون أن يكون من بين المعلمين الرئيسيين. لذلك، من أجل مصلحة الأطفال، يجب عليه إقامة تعاون حقيقي مع الوالدين (أي يصير طرفا ثالثا).

للقيام بذلك، يجب على هؤلاء العاملين اكتساب معارف حول التطور النفسي والمعرفي والعاطفي والاجتماعي للطفل. حاليا يركز التدريب المقدَم لهؤلاء العاملين على التطور المعرفي للأطفال. أما الجوانب الأخرى فهي قلّما يتم مناقشتها.

من المسلم به أن التنشئة التي يطوّرها نظام (أتسيم) تصاعدية ومتطورة، لكن ليس بشكل كاف برأيي. مع ذلك فهم يقضون معظم الوقت مع الأطفال. من الاستقبال الصباحي وعبر الرعاية النهارية وما بعد الظهر، ويشاركون في جميع الأحداث البارزة خلال النهار.

لكي يصبح المرء عضوا في أتسيم Atsem، يخضع المرشح لامتحان تنافسي تقيمها معاهد التربوية CAP أو AEPE (الدعم التعليمي للطفولة المبكرة) ثم ينالون شهادة للعمل في الحضانات.

والحال، فإن برنامج هذه الشهادة – الدبلوم يقدم محتوى عموميا وضعيفًا في المجالات التي تعد اليوم ضرورية جدا. على سبيل المثال، في برنامجهم الدراسي يتم التطرق إلى التطوّر النفسي لدى الطفل بشكل سريع جدا.

أما بالنسبة لمعلمي المدارس، من المهم أن يتمكنوا، على سبيل المثال، من اكتشاف صعوبات عسر القراءة لدى الأطفال، وهو اضطراب في التنسيق والتوازن يصيب ٥٪ من الأطفال.

والسؤال هو: كيف نكتشف مثل هؤلاء الأطفال بصورة مبكرة؟ من الملاحظ أن مثل هؤلاء يتعرضون لـ:

- إنهم يسقطون بسهولة.
- يجدون صعوبة في ارتداء ملابسهم.
- يبدون محرجين أمام أنشطة وألعاب مثل ألعاب البناء والألعاب الجماعية وركوب الدراجات.
- يجدون صعوبة في تخطيط الرسومات والكتابة.
- يجدون الصعوبة في الاتجاه في المكان والزمان.

نستنتج من هذا أن المصاب بعسر القراءة dyspraxie يشعر بالحرج في العديد من الأنشطة. ومع ذلك، قد يجد المعلم صعوبة في التمييز بين هذه الإعاقة وبين مشكلة سلوكية بسيطة.

بالإضافة إلى ذلك، بمجرد تشخيص عسر القراءة، تتمثل مهمته في وضع ترتيبات محددة وطريقة تقييم ملائمة. يفترض هذا أن المعلم مثقف وقد اطلع بشكل كافٍ على هذه المسألة. أخيرًا، سيستفيد الأطفال والمعلمون من إقامة علاقة عاطفية جيدة فيما بينهم.

يمكن للمعلمين الاعتماد على نظرية "التعلق" التي طورها الطبيب والمحلل النفسي جون بولبي Bowlby (١٩٠٧ –١٩٩٠). اهتم بنمو الأطفال. نشأ على يد مربية طوال طفولته المبكرة، وغادرت بعد أن أكمل جون عامه الرابع مما أثر على نفسيته كما لو فقد أمه.

في سن السابعة أُرسل إلى مدرسة داخلية، كما كان حال كثير من الأطفال ممن هم بمثل وضعه الاجتماعي. لذا خصص حياته لدراسة العلاقة الجسدية والعاطفية الوثيقة بين الطفل والمعلم، من خلال مواقف وجدانية ومطمئِنة، بوضع الطفل في حالة ثقة وأمان.

بافتراض تحسين تدريب العاملين، على الحضانات أن تمتلك موارد كافية لتمكينهم من تطوير مهاراتهم. وهنا أقول، لا نخف من الحقيقة إذ يمكن أن يكون اكتشافها مخيبا للآمال بعض الشيء.

باختصار، من الضروري ضمان تدريب قويّ وشامل للموظفين في الحضانة. في الواقع، لديهم مهمة حساسة تتمثل في دعم الأطفال في عملية بناء شخصيتهم ومستقبلهم.

الخاتمة

في السنوات الأخيرة، زادت المعرفة حول أدمغة الأطفال بشكل كبير. من الآن وصاعدا، تحدّد استنتاجات العلماء كيفية تعلم الأطفال وكيف تتكون لديهم الذكريات والذاكرة. والحال، فإن البيئة المدرسية والتأثير العاطفي لمهنيّي رياض الأطفال أمران حاسمان لتعلم الطلاب الصغار. هذا هو السبب في أن السنوات الأولى من الطفولة يجب أن تكون موضوع رعاية خاصة.

ما يجب أن نتذكره من هذه الدراسة المختصرة من كتاب العالم والنفساني بوريس سيرولنك، ببضع أسطر:

- الطفل الذي ينمو في حضانات ورياض أطفال جيدة سيبدأ حياة جيدة وسينطلق سعيدا نحو المستقبل.
- إن الطفل الطليق والذي لديه مهارات شفهية سيتمكن منذ البدء من تعلم القراءة والكتابة.
- لا ينبغي إهمال القيلولة في المدرسة لأنها تسهم في نموّ الطفل بشكل جيد.
- للموسيقى ولتعلم لغة ثانية آثار إيجابية على نموّ الدماغ لدى الطفل.
- عندما يلعب الطفل، يحتاج إلى التواصل مع أقرانه وأن يكون تحت أنظار الكبار أيضا.
- العاملون في الحضانات ممن يتبعون نظريات أتسيم Atsem ليسوا بالضرورة مدربين تدريباً كافياً على الاضطلاع بالنمو العاطفي للأطفال.

السليمانية ٢٩ تشرين الثاني ٢٠٢١